الفصل الثالث: مظاهر سقوط الخلافة

أولا: المظاهر السياسية

ثانيا: المظاهر الاقتصادية

ثالثا: المظاهر الاجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

أشير فيما سبق إلى مظاهر انهيار الخلافة الأموية في الأندلس، وكما للانهيار مظاهر فإن للسقوط مظاهر أيضاً، فمنها المظاهر السياسية من ضعف الخلفاء الأمويين في الأندلس بدءاً من الخليفة هشام المؤيد وحتى الخليفة هشام المعتد بالله، ثم وجود أكثر من خليفة واحد في عدد من المدن الأندلسية، واستعانة أهل المدن بحكام مدن الأندلس الأخرى، كما أن هناك مظاهر اقتصادية للسقوط، وتمثلت في تدهور قوى الإنتاج من زراعة وصناعة وتجارة، فضلاً عن إفلاس خزينة الدولة، وكذلك وجود المظاهر الاجتماعية للسقوط، وتمثلت في الصراع العنصري، فضلاً عن تعاظم الخطر النصراني وتدخلاته في أوضاع وشؤون الأندلس. وفيما يأتي تفصيل ذلك كله:

أولا: المظاهر السياسية:

أ: ضعف الخلفاء الأمويين[١]

- الخليفة هشام المؤيد

وهو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، ويُكْنَى أبا الوليد[٢]، وبدأت في عهده بوادر نهاية الدولة الأموية في الأندلس.

كان عمره أحد عشر عاماً وأشهر عندما بويع بالخلافة، وقد ذكر ذلك من

(١) للتعرف على هؤلاء الخلفاء ومدد حكمهم للأندلس انظر: ملحق (٥)، ص ٢١٥.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٥٣.

قبل، وكان مسيطراً عليه ولا ينفذ له أمر، مسلوب السلطة والسلطان، إذ تغلب عليه كل من كان ممسكاً بزمام الأمور في الأندلس بدءاً من الحاجب المصحفي ومروراً بالمنصور بن أبي عامر حتى عهد سليمان المستعين حينما قتل[١]، وكان الخليفة هشام في بداية خلافته يميل إلى الدَّعَة واللهو وهذا مايفرضه سنه وطبيعته، ولم يكن يملك من الصفات التي تؤهله لمنصب الخليفة، إذ كان يقضي كل وقته في اللعب بين الخصيان وآلات الطرب، وعندما كبر سنه انشغل بمجالسة النساء، والمحادثة مع الإماء[٢]. وبذلك فإن هذا الضعف عند الخليفة هشام فرضه صغر سنه، وحتى عندما ترعرع وكبر وهو خليفة راحت تتقاذفه التيارات المتصارعة في الأندلس، بل وأصبح شكلاً بلا مضمون، وقد ذكر ذلك من قبل عندما سلبت منه السلطة الزمنية ولم يبق له سوى السلطة الروحية وحتى هذه سلبت منه أيضاً، ويلمس استكانة واستسلام من قبل هشام المؤيد عندما قدم عليه ممثل عن أهل قرطبة، وكبيرهم وهو أبو عمر بن عبد الملك ومعه رجل من نظرائه ليسمعا منه خلعه لنفسه، وأخذ البيعة لابن عمه محمد المهدي، فاستجاب هشام دون أي اعتراض ((... فأقر لهما هشام بالخلع وأقر لمحمد بالبيعة...))، والدليل القاطع على ضعفه

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢١؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٤؛ المراكشي: المعجب، ص ٢١؛ سامية مصطفى مسعد: التكوين العنصري، ص١٣٢.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٥٨؛ ابن الخطيب: الإشارة، ص ٥٠؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٢٥؛ سامية مصطفى مسعد: التكوين العنصري، ص ١٣٢. لم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصف الخليفة هشام بالمتخلف **((نشأ جامد الحركة، أخرس الشمائل، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار في صورة آدمي))**. انظر: ابن سعيد: المغرب، ١/ ١٩٤.

والمضاف لما تقدم عندما ((... تسرَّع هشام الى خلع نفسه واعترافه بعجزه...))[١].

أما فيما يتعلق بالوضع الخارجي للأندلس فإن الأمور في عهد هشام أخذت منحىً مغايراً لما كانت عليه أيام جده وأبيه، إذ ترك الغزو مما فسح المجال لتطاول النصارى على أراضي المسلمين ((لما توفى الحكم ولي ولده هشام صغيراً فأهمل الأمور وترك الغزو؛ فانتشرت الروم في كل جهة من ثغور المسلمين، وتطاولوا إلى البلدان وسبوا وغنموا؛ فقدم الناس من الثغور يشكون ما حل بهم...))[٢].

وعندما نفتش مرة أخرى عما يدلل عن ضعف هشام المؤيد فليس هناك أدل على ضعفه، وعجزه ما ظهر منه في ضائقة قرطبة المالية وارتباك الأوضاع، وحصار البربر لقرطبة عندما قدم عليه القوم يبغون مشورته فما كان منه إلا أن بكى بكاءً شديداً وقال: ((فلست أقدر لكم ولا لنفسي على شيء فإنظروا ما فيه صلاحكم فافعلوه وانا تبع لكم))[٣]، وتكررت حالات الضعف التي مر بها هشام المؤيد حتى أصبحت سمة يمتاز بها وطبع ثَبَتَ في نفسه، إذ لا يستطيع الصمود أمام أي معضلة تمر بها الدولة، بل ويترك الأمر لوزرائه يديرون شؤون البلد ((وصار الوزراء يدبرون أمر البلد))[٤]، وبذلك ترتب على هذا

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٦٠.

(٢) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢١٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٥.

الخور والضعف عند الخليفة ويلات عاشتها الأندلس، وقدم أهلها أعداداً كبيرة من القتلى، فضلاً عن الخراب والدمار الذي لحق بعدد من مدن الأندلس.

- **الخليفة محمد المهدي**

يعد من الخلفاء الأمويين الضعفاء بسبب سلوكياته وتصرفاته التي وصفها ابن عذارى حين قال: ((وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار قد أظهر من الخلاعة... والضعف مالم... واستعمل له من الخمر مائة خابية واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب واشترى له صقلبي كان يتعشقه... وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية... يقال لها بستان وامرأة... اسمها واجد فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها فكان هذا من جملة أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لديه...))[١]. ووصف أيضاً بأنه فظ، ويسفك الدماء، وقليل الحصافة ناصَبَ كافة الأطراف العداء، وبدأ حكمه بتسريح سبعة آلاف من الجند[٢].

يتضح من خلال ما تقدم حالة التهتك، والضعف، وقلة الخبرة بكافة أمور الدولة ومتطلباتها، فضلاً عن **الخبرة العسكرية**[٣]، وإن وضعية الانحلال التي

---

(١) المصدر نفسه، ٣ / ٧٩ – ٨٠.

(٢) رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٢/ ١٦٩.

(٣) إن خروجه من مأمنه في سهل شرق قرطبة لمواجهة العدو بدلاً من انتظار العدو كانت سبباً في هزيمته في معركة قنتيش أمام البربر، وهي دلالة على قلة خبرته العسكرية انظر: رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٢/ ١٧٤.

عاشها الخليفة محمد المهدي، والتي دون أدنى شك كان مصدرها حالة ضعف عند الخليفة محمد المهدي، والتي انعكست على تصرفه وسلوكه، وكل هذه الخصال لا يمكن أن تمت بأي صلة إلى شخص يحمل لقب خليفة للمسلمين، لأن الضعف يتقاطع جملة وتفصيلاً مع القيادة.

لقد عمل محمد المهدي الكثير من الممارسات والتدابير التي من شأنها أن تجعل منه خليفة كما يعتقد هو، فبعد أن دخل قرطبة، وقتل عبد الرحمن شنجول سعى لمحو ذكر الخليفة هشام المؤيد وإخفائه عن الناس بمسرحية مضحكة، والإعلان بأنه مات، وذلك من خلال تدبير قام به ليصبح خليفة بدلاً عنه، وعندما فشل هذه التدبير وخسر معركته مع البربر، راح يستعطف البربر من خلال إخراج الخليفة هشام المؤيد من جديد، معلناً أنه لم يمت، إلا أن خطته هذه باءت بالفشل، لأن البربر رفضوا حتى خلافة هشام المؤيد، وعبروا عن ذلك بقولهم: ((الله محمود على سلامته، ونحن فلا حاجة لنا في إمامته، ولا نرضى بغير سليمان...))[١].

كان سوء إدارته للدولة مؤشر يؤكد ضعفه وقلة خبرته أيضاً، إذ عمل على سجن عدد من قريش، وقام بالمضي قدما في الإساءة للبربر الذين يمثلون طبقة مهمة في مجتمع الأندلس[٢]، مما جعلهم يميلون إلى هشام الرشيد وينصبوه عليهم، ويشتركون في الانقلاب على محمد المهدي الذي استطاع أن يكشف

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٤٥ وللتعرف على طريقة إخفاء الخليفة هشام المؤيد انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٧٧؛ رينهارت دوزي: المرجع السابق، ٢/ ١٧٤.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٧٨؛ محمد عبده حتامله: الأندلس، ص ٤٢٨.

أمرهم، وينتصر عليهم في النهاية[١].

يتضح المظهر الأكبر، والأكثر تأثيراً على مستقبل الأندلس والذي شهده عهد محمد المهدي، والفترة التي تلت نهاية الأسرة العامرية هو بداية تشتت وتمزق وحدة الأندلس، والذي يعد ضعفاً من قبل محمد المهدي ويحسب عليه، إذ ثار كل قائد بمدينته، وتحصن بها وعساكره، وتنافسوا القادة فيما بينهم، وطمع كل واحد بالآخر[٢].

- الخليفة هشام الرشيد

رأى البربر أن الرجل المناسب والمُخَلص لهم مما أصابهم، والذي سينقذهم من تصرفات محمد المهدي الهوجاء هو هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فانبرت طائفة منهم فقصدوا داره، وأخرجوه منها بعد أن استجاب لهم، وبايعوه فتلقب بالرشيد سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨[٣]، وراحوا يعملون سراً من أجل الإطاحة بمحمد المهدي، إلا أن أمرهم انكشف[٤]، ولكن مع ذلك تجمعوا وزحفوا نحو قصر محمد المهدي وحاصروه، إلا أنه سرعان ما هزمهم وشتت شملهم[٥]، وقتل الرشيد وأخوه أبو بكر[٦]، ولكن

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٧.

(٢) ابن بلكين: التبيان، ص٣٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/٨٣.

(٤) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٧.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣.

(٦) المقري: المصدر السابق، ١/ ٤٢٧.

نتيجة لقصر المدة التي بويع بها الرشيد، فلا يمكن أن تظهر ملامح قوته أو ضعفه، إلا أنه يمكن أن يلمس حالة ضعف عند الرشيد من خلال اندفاعه الذي يبدو أنه غير محسوب بدقة مع البربر، مما أدى إلى انكشافه بسرعة على الرغم من سرية الموضوع.

- الخليفة سليمان المستعين

ظهر أموي آخر ليصبح خليفة في قرطبة بمناصرة البربر له هو سليمان المستعين[١]، ولكن يعد فراره من معركة عقبة البقر ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م أول نقاط الضعف التي تحسب عليه، بسبب قلة خبرته العسكرية، إذ لولا فراره لتغير الموقف النهائي في المعركة لصالحه وصالح البربر[٢]، وفي وصفٍ لمدة خلافته التي بلغت ست سنوات وعشرة أشهر ((وكانت كلها شداداً نكدات، صعاباً مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة؛ لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف؛ ولا تم سرور، ولا فقد محذور؛ مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة: دولة كفاها ذما أن أنشأها شانجة [شانجة بن غرسيا صاحب قشتالة]، فقشعها أرمقند [من قادة برشلونة]، وثبتتها الجلالقة [سكان جليقية شمال غرب اسبانيا]، ومزقتها الافرنجة، ودبرها فاجر شقي، ووزر لها خب [الماكر] دني؛ فتمخضت عن الفاقرة [المصيبة] الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها الى ما كان أعضل وأدهى،

(١) Vila: OP.Cit , P. ٣٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٩٥؛ عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص ٥٠٩.

مما طوى بساط، الدنيا، وعفى رسمها، وأهلك أهلها))[١].

نستشف من النص السابق الحالة الصعبة التي سادت قرطبة مدة خلافة سليمان المستعين، وكيف كانت مشئومة على أهل قرطبة خاصة منذ بدايتها حتى نهايتها، لم يهنئ فيها الناس، ويستقر لهم حال، واشتعلت الفتن بين المسلمين، وكثرت المصائب، وسادت المكائد، وتدخل النصارى في الشأن الأندلسي، وصارت لهم الكفة الراجحة في تثبيت هذه الدولة أو تلك، وهذا الحاكم أم ذاك، من خلال دعمهم لجهة على حساب جهة أخرى، وراح ضحية ذلك مئات القتلى من المسلمين، وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على حالة ضعف عند الخليفة، لأنه لو كان قوياً لاستطاع السيطرة على الأوضاع، وما احتاج للاستعانة بالنصارى على تثبيت أركان دولته، وكان مما زاد الطين بله في ضعف موقف سليمان هو تخلي بعض أنصاره عن مناصرته إذ رأى البعض منهم بعد صمود طليطلة **والثغر الأوسط**[٢] أمامه أنه ليس صاحب الحق الشرعي في الخلافة، ونتيجة لذلك قرروا التخلي عنه والانضمام إلى محمد المهدي، ومن الذين تخلوا عنه قائد جيشه علي بن وداعه ومعه عدد من العبيد، كما تخلى عنه صاحب الشرطة محمد بن مسلمة الذي لجأ إلى محمد المهدي أيضاً[٣].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٣٦؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب عصر سيادة قرطبة، ص ١٣٤.

(٢) قاعدته مدينة سالم شمال مدريد بنحو ١٥٣ كم في مقاطعة سوريا في أعالي وأواسط نهر دويره الذي يلي وادي الابرو جنوبا ويصب في المحيط الأطلسي غربا. وللمزيد من التفصيل انظر: أحمد مختار العبادي: صور من حياة، ص ١٤ .

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ٩٣ .

أما لو ألقينا نظرة على ما قام به من أعمال لغرض الإصلاح، فيمكن عد سك عملة باسمه في مدينة الزهراء واحدة من أعماله[١]، كما عمل على إبعاد البربر عن الاحتكاك بأهل قرطبة من خلال توزيعهم على المدن والكور، إلا أن ذلك انقلب عليه إذ سرعان ما أدرك زعماء البربر أنهم وصلوا من القوة التي تغنيهم عن التحالف مع خليفة مرواني مثل سليمان المستعين وراحوا يتآمرون عليه[٢]، بل سعى بعضهم إلى تسلم الخلافة بصورة مباشرة، وهذا ما حصل عند سيطرة **علي بن حمود**[٣] على الخلافة، وتعد خطوته تلك عمل غير محسوب.

وإذا كان الخليفة سليمان المستعين لا يخلو من صفات رجل الدولة، التي

---

(١) Leopoldo Torres Balbas: Art Hispano Musulmana hasta la caida del califato de cordoba chistoria de Espana , dirigida por Ramon Menendez pidal , Madrid , ١٩٥٧ , p. ٤٢٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٥٦.

(٣) هو علي بن حمود بن أبي العيش ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ويكنى أبو الحسن، ويسمى الناصر، وهو أول من حكم الأندلس من العلويين وتسمى بالخلافة، يعد أبرز شخصية في أسرة الحموديون الذين راحوا ينسبون إلى البربر على الرغم من أصولهم العربية إذ كان علي بن حمود بالكاد يعرف اللغة العربية وينطقها بلهجة زناته، وللمزيد من التفصيل انظر: ابن حزم: جمهرة انساب العرب، راجعه: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٤٢٤ه / ٢٠٠٢م، ص٥٠؛ ابن الأبّار: الحُلَّة السِّيراء، ٢ / ٢٦؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٢٨؛ لويس سيكودي لوثينا: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة: عدنان محمد آل طعمه، دار سعد الدين – مطبعة الشام، دمشق، ١٤١٣ه/ ١٩٩٢ م، ص ١٨.

تجعل منه أفضل ممن سبقه وهو الخليفة محمد المهدي فإنه لم يكن باستطاعته فعل شيء لدولة تتقاذفها أمواج الفتن من كل جانب، لأنه لم يكن رجل المرحلة الصعبة التي تمر بها الأندلس نتيجة للفوضى المستحكمة التي عمت البلاد، فهو لا يملك قراراً حراً في إتباع السياسة التي تتطلبها مجريات الأحداث، ولم يكن باستطاعته التحالف مع من يرغب، لأنه وصل إلى دفة الحكم في إطار الصراع بين البربر وأهل قرطبة، ولذلك ظل طيلة حكمه أسير لذلك الصراع ومجرياته بل ومسلوب الإرادة.

- الخليفة عبد الرحمن المرتضى

أما الخليفة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر المرتضى، فكان رجلا صالحاً، مهتماً بالفقه، وزاهداً في الدنيا[١]، فلم يعرف عنه سوى صرامته التي وصف بها، إذ سرعان ما تم تنصيبه خليفة من قبل خيران العامري نكاية بعلي بن حمود ورغبة في عودة المروانيين لحكم الأندلس، وسرعان ما دبر له الفتيان العامريين مكيدة بقيادة زعيمهم خيران العامري، خذل في بدايتها، وقتل في آخرها[٢]. وبذلك يمكن أن يعزى ذلك إلى سببين الأول: هو قلة

(١) ابن حزم: جمهرة، ص ١٠١.

(٢) المراكشي: المعجب، ص ٣٧؛ النويري: نهاية الارب، ٢٣ / ٤٢١ - ٤٢٢؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٥٩. من بين النتائج المترتبة على مصرع عبد الرحمن المرتضى على أوضاع الأندلس، هو أن هذه الحادثة نزلت كالصاعقة على المروانيين إذ أذهبت قوتهم إلى دون رجعة بل وشردتهم في أرجاء الأندلس، ((**فركدت ريح المروانية في ذلك الوقت وقتل من نجم [نجا] منهم بأطراف الأرض وأيس الناس من دولتهم وألوى الخمول بجملتهم فتقطعوا في البلاد ودخلوا في غمار الناس وامتهنوا واستهينوا**)) انظر: ابن عذارى: البيان

الخبرة التي كانت تنقص المرتضى سواء أكانت في الجانب العسكري أو جوانب أخرى، والسبب الثاني: يكمن في شحة المناصرين المخلصين له، إذ اعتمد على الصقالبة الذين تحركهم المصالح الشخصية.

إن عملية قتل عبد الرحمن المرتضى بهذه الطريقة من قبل خيران العامري تؤكد ما أشير إليه من قبل، من أن هؤلاء الفتيان العامريين أو الصقالبة لا يكترثون بمن يأتي لحكم الأندلس بقدر ما يهمهم الحصول على السلطة والنفوذ تدفعهم بذلك نزعاتهم الذاتية والإثنية التي نمت بمرور الوقت، وهنا أراد خيران العامري اصطناع خليفة يستطيع من وراءه العمل بما يشاء في السلطة ومقدراتها، وعندما لم يرق له سلوك المرتضى من صرامة، وحدة نفس قرر قتله غيلة لأنه لا يستطيع أن يجعله ألعوبة بيده.

- الخليفة المستظهر بالله

هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة عبد الرحمن الناصر، وتلقب بالمستظهر بالله[1]، أما خلافته فقد دامت سبعة وأربعين يوماً ثم قتل، نتيجة مؤامرة دبرت ضده، فعند بيعته بالخلافة استأمنه شيوخ قرطبة على أنفسهم، ولما تم له الأمر نكث عهده معهم، وسجنهم بسبب ميلهم إلى منافسه سليمان بن المرتضى، فراحوا يدبرون الأمر ضده، وألبوا الناس ضده، وكاتبوا صاحب الشرطة فاستجاب لهم ومعه طائفة من أهل قرطبة حتى أخرجوهم

المغرب، ٣ / ١٢٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣١ .

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٧؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٩.

من السجن، ثم هجموا على القصر، وعندها تخلى عنه وزراءه ثم خلع[١].

لكن وعلى الرغم من الصفات الحسنة التي تمتع بها المستظهر بالله، والتي من الممكن أن تؤهله لخلافة ناجحة إذ ((كان على حداثة سنه ذكياً يقظاً أديباً حسن الكلام جيد القريحه...))[٢]، فإنه كانت تنقصه الخبرة المطلوبة لقيادة المسلمين، والسند القوي في هذا المعترك الصعب في دولة يتربص بها الطامعون من الداخل والخارج، فضلاً عن تردي أحوال البلاد في كافة الجوانب، إلا أن تمرداً قاده ابن عم له هو محمد ابن عبد الرحمن المستكفي بالله مع عدد من أراذل عامة قرطبة قتل على أثره[٣]، عندما استغل المستكفي إكرام المستظهر لوفد من البربر، فراح يحرض الناس ضده، مستغلاً البغض الذي يضمره أهل قرطبة للبربر، وقد نجح في مسعاه، ((وكان [المستظهر] ورد عليه قبل إطلاقه بيومين فوارس من البربر، فكرم مثواهم وأنزلهم معه في دار الملك، فاهتاج لذلك الدائرة وقالوا للعامة: نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة،

(١) ابن الأثير: الكامل، ٨ / ١٠٢ – ١٠٣؛ المراكشي: المعجب، ص ٤٠؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٣٥ – ١٣٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٤ – ١٣٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٦١. إن ما قام به المستظهر بالله من نكث العهد الذي قطعه على نفسه لشيوخ قرطبة، فيه إشارة لسوء تدبير منه ناجم عن قلة خبرة، خاصة وهو في بداية تكوين دولته وهو بحاجة لكسب الأتباع والأعوان بطرق عديدة كأن تكون الصفح والعفو عند المقدرة، لا إلى التشدد في القصاص.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص٥٥.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص٥٢؛ ابن الأبَّار: الحُلَّة السِّيراء، ٢ / ١٢. لقد شعر المستظهر بما يدبره المستكفي له فحاول القبض عليه إلا انه أخفق في ذلك وللمزيد من التفصيل انظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق١/ م١/ ص٥٢.

وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا، وتمكينهم من نواصينا، فهاجوا العامة، فوثبوا عليه بالقصر...))[١].

وعلى الرغم من صفات المستظهر الايجابية، فإنه كان يملك ألواناً من الظلم، والتعسف ضد الرعية فكان ((لا يقع بيده درهم إلا من صبابة مستغل جوف أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها يقيم منه رمقه ويفرق جملته على من تكتنفه من جنده ودائرته ويتطرق الى ما يقبح من ظلم رعيته فلم يلبث الأمر أن تفرى به فسفك دمه وانحسم الأمر في دولته))[٢].

- الخليفة المستكفي بالله

هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر[٣]، وفي أيام المستكفي بالله كانت باكورة أعماله هي قتل ابن عم له هو محمد بن العراقي[٤]،

وبذلك وصل الأمويون إلى أعلى حالات الضعف من خلال التآمر فيما بينهم، والصراع الذي وصل إلى حد القتل من أجل الحصول على الخلافة، فشتان مابين هذه المواقف وموقف أعمام الخليفة عبد الرحمن الناصر الذين تنازلوا له عن الحكم ليصبح أميراً.

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، ق١/ م١ /ص٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ق١/ م١/ ص ٥١ – ٥٢ .

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٧ – ٢٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٩ – ٣٠.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٤٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٦.

وصل الاستهتار بالسلطة عند المستكفي إلى الحد الذي أوكل أموره وأمور دولته إلى رجل يعمل حائكاً بعد أن استوزره، إذ كان في غاية السخف والتخلف، وجل همه فرجه وبطنه[١]، فضلاً عن هروبه عندما دعاه أهل قرطبة لمواجهة يحيى بن علي بن حمود الذي أراد اقتحام قرطبة، إذ تسلل هارباً، ومتخفياً من قصره بزي غانية بين امرأتين لم يميز بينهما[٢].

لعل من المفيد هنا عمل مقارنة بين المستكفي والمستظهر إذ وجدنا الفرق الشاسع بين الشخصيتين، فالمستكفي ((انه لم يجلس للإمارة مدة الفتنة أنقص منه إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والبطالة أسير الشهوة عاهر الخلوة ضدا لقتيله المستظهر بالله في الطهارة والمعرفة والذكاء))[٣].

يمكن أن توصف حالة الدولة في الأندلس في خلافة المستكفي بأنها دولة يترأسها متخلف، ويدبر أمورها حائك ! فكيف حال تلك الدولة إذن؟ وإلى أي مرحلة من الضعف قد وصلت؟

- الخليفة هشام المعتد بالله

أما الخليفة الآخر فهو هشام بن محمد بن عبد الملك الملقب بالمعتد بالله،

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ٨ / ١٠٣؛ المراكشي: المعجب، ص ٤١ – ٤٢. وقيل أن المستكفي سيطرة علية امرأة أندلسية تدعى بنت المروزية وتحكمت بأموره وقادته كيف أرادت. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٤١؛ عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص٥٢٦

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٤٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٦؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٦٢ .

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ١٤١ – ١٤٢ .

وهو أخو عبد الرحمن المرتضى، بويع بالخلافة وهو خارج قرطبة، حتى دخلها في ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠هـ/ ديسمبر: كانون الأول ١٠٢٩م، واستمر بخلافته حتى خلع في ١٢ من ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ/ ديسمبر: كانون الأول سنة ١٠٣١م[١]. وكان سبب خلعه أنه جعل أمره وأمر دولته بيد وزيره ابن سعيد القزاز الذي لم يكن له خبرة بأمور الدولة فراح يتخبط في تعامله، ويخالف الوزراء، ويأخذ أموال التجار ويغدق بها على البربر، فبغظه أهل قرطبة، ودسوا له من قام بقتله[٢]، وإن مرد ما حدث يعود إلى ضعف وعجز عند الخليفة، مما حفز ابن عم له هو أمية بن عبد الرحمن العراقي على تحريض الناس على الخليفة رغبة منه بالخلافة[٣]، وبذلك فإن ((من لا يحسن اختيار كتابه وحجابه وأعوانه فأحرى ألا يحسن التصرف في سلطانه))[٤].

ونتبين جليا حالة الضعف التي عاشها الخلفاء الأمويون في تلك المرحلة أكثر وأكثر، وذلك من خلال مؤشر واضح هو التكالب المحموم على السلطة من أجل الحصول على منصب الخليفة، إلى الحد الذي جعل الصراع يحتدم فيما بين الأمويين أنفسهم، والواحد منهم يتآمر على ابن عمه، ويسعى في قتله من أجل الوصول إلى دفة الحكم، وكما يتبين أيضاً حالة عدم الاستقرار التي عاشها أهل قرطبة في عدم الثبات على خليفة، إذ لم يستقر لديهم خليفة حتى خلعوه

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ٨ / ١٠٦؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ص ١٠٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٨ / ١٠٦ – ١٠٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٤٦؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٨؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ص ١٠٧.

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق والصفحة؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق والصفحة .

(٤) الحضرمي: كتاب السياسة، ص ٣٤.

بعد مده، وهذا ما يجعل المتتبع لما جرى أن يطلق على أهل قرطبة تسمية متقلبي الأهواء، وإذا كان البعض يطلق على البربر عشاق التمرد[١]، فالأولى بأن تطلق تلك التسمية على أهل قرطبة، وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في تردد الخليفة هشام المعتد بالله من التوجه إلى قرطبة لممارسة عمله، إذ بقي في الثغور قرابة ثلاث سنوات حتى دخل قرطبة[٢].

وصلت حالة الضعف عند الأمويين إلى المدى الذي جعلهم يفعلون أي شيء من أجل الوصول إلى دفة الحكم، فهذا أمية بن عبد الرحمن دعا لنفسه، فبايعه بعض أهل قرطبة، وخاطبه البعض الآخر بالقول: ((نخشى عليك أن تقتل في هذه الفتنة. لأن السعادة ولت عنكم، فقال: بايعوني اليوم واقتلوني غدا))[٣].

إن حالة الإصرار غير المجدية هذه من أجل البيعة والحصول على الخلافة، تستدعي الوقوف عندها، واستذكار الخلفاء الأمويين الأقوياء في الأندلس أمثال الخليفة عبد الرحمن الناصر، وابنه الخليفة الحكم المستنصر، والمقارنة مع ما وصل إليه الخلفاء الأمويين هؤلاء، إلا أن المقارنة هنا ربما تكون غير ذي فائدة لأن فيها إساءة إلى خلفاء الأندلس الأقوياء ومساواتهم بهؤلاء الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة، فشتان مابين الثرى والثريا.

---

(١) Vila: OP.Cit ,p.٣٣ .

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٣١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ٨ / ١٠٦.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ٨ / ١٠٧ .

خلاصة القول إن حالة الضعف التي بدأت تسري في الخلفاء الأمويين بدءا بهشام المؤيد حتى هشام المعتد بالله، وحتى الذين يمكن أن تؤهلهم صفاتهم لأن يكونوا رجال دولة كالخليفة المستظهر مثلا، لم تسعفهم الظروف المحيطة بهم من صراع بين الأمويين أنفسهم، والضائقة المالية، وقلة الخبرات الموجبة للقيادة، وبذلك فإن الأندلس أحوج ما تكون إلى القيادة القادرة على الفعل والحسم والقادرة على تذليل الصعاب.

ب: وجود أكثر من خليفة

منذ تأسيس الدولة الأموية في الأندلس ١٣٨ه/ ٧٥٥م على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخل وهو لم يتلقب بلقب الخليفة بل وخطب للخليفة العباسي في بغداد[١]. وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في تحديد المدة التي خطب بها عبد الرحمن الداخل وأحفاده للعباسيين، فإنهم يتفقون على أن الداخل خطب للعباسيين بغض النظر عن المدة التي خطب بها[٢]، وحتى لو سلمنا بأن أحفاد عبد الرحمن الداخل قطعوا خطبتهم للخليفة العباسي فإنهم لم يعلنوا الخلافة في الأندلس حتى مجيء عبد الرحمن الناصر الذي أعلنها لأسباب موجبة لذلك.

(١) ابن الكردبوس: الاكتفاء، ١/ ٣٨٣ .

(٢) هناك من اعتبر كل أحفاد عبد الرحمن الداخل حتى عبد الرحمن الناصر كلهم خطبوا للخليفة العباسي انظر: ابن الكردبوس: المصدر السابق، ١/ ٣٨٣ في حين هناك من يحددها بأشهر دون السنة المدة التي خطب بها الداخل للخليفة العباسي أبو جعفر المنصور انظر: ابن الأبَّار: الحُلَّة السِّيراء، ١/ ٣٥ وهناك من لم يحددها بمدة إذ اكتفى بان الداخل كان يدعو للخليفة المنصور ثم قطع دعوته انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٢٩.

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم تعلن الخلافة في الأندلس من قبل الداخل وأحفاده حتى عهد الناصر؟ وهنا تكمن مهمة الباحث الصعبة التي تحتم عليه مواجهة الماضي والمشاعر البشرية وفهمها بعقل هادئ ومتأهب(١). وتتحدد مشاعر عبد الرحمن الداخل الإنسانية من خلال سياسته الحكيمة التي اتبعها تجاه الدولة العباسية صاحبة السيادة الروحية على العالم الإسلامي، باعتبارها خلافة شرعية واحدة، وعلى جميع المسلمين الامتثال لأمرها، كما أنه يدرك كامل الإدراك في حالة انفصاله عن الخلافة سيثير الشعور العام ضده، وهو في بداية تأسيس دولة فتية(٢). وهذا يدلل على أنه وأحفاده من بعده لم يستغلوا المسألة الدينية لكسب منافع دنيوية من خلال إقامة خلافة ثانية في الأندلس، وحتى الطبقة العليا لم تشجع على ذلك أو تسعى إليه في تنصيب خليفة تجني من وراءه المنافع، وهذا بالضد من الخلفاء الذين ظهروا في زمن الفتنة التي ضربت الأندلس بعد نهاية تسلط الأسرة العامرية، إذ سعت الطبقة العليا ومن أمسك بزمام السلطة إلى اصطناع أكثر من خليفة مستغلين المسألة

---

(١) Albornoz Claudio: Dipticos De Historia De Espana,prologo de: Vicente palacio, Madrid , ١٩٨٢ , P. ٨٩.

(٢) ابراهيم ياس خضير الدوري: عبد الرحمن الداخل في الأندلس، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠٣ه/ ١٩٨٢م، ص١٦٥. كان أئمة المسلمين أجازوا تعدد الخلافة عندما تتسع رقعة الإسلام، وذلك لتبرير قيام الخلافة الأموية في الأندلس غرب العالم الإسلامي، مع وجود الخلافة العباسية في بغداد شرق العالم الإسلامي. انظر: عصام محمد شبارو: الأندلس، ص ٢١٣. وبذلك لا يمكن قيام أكثر من خلافة في رقعة صغيرة من بلاد المسلمين هي الأندلس ويعد خروج عن الأصل الشرعي. كما أن أمراء بني أمية يرون أن الخلافة أحق لمن يملك الحرمين، وقد أشير إلى ذلك من قبل في التمهيد من هذه الرسالة.

الدينية في ذلك أملا بمنافع دنيوية[١].

فنرى تعدد الخلفاء في الأندلس في وقت واحد وفي أماكن مختلفة في الأندلس ذاتها. فعندما كان الخليفة محمد المهدي في قرطبة، أراد البربر الانتقام من محمد المهدي فنصبوا هشام الرشيد خليفة وبايعوه[٢]، ثم ما لبثوا أن بايعوا سليمان ولقبوه بالمستعين ((فبايعوه ولقبوه المستعين بالله...))[٣]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ سرعان ما أقام مجاهد العامري خليفة منافس لسليمان المستعين في مدينة دانية عرف بالفقيه المعيطي[٤]، كما بايع كل من أهل مالقة، والفتى خيران، وزاوي بن زيري صاحب البيرة، بايعوا علي بن حمود بعد أن خلعوا طاعة سليمان المستعين[٥]، وبذلك أصبح خليفة في قرطبة هو سليمان المستعين، وخليفة في دانية الفقيه المعيطي، وخليفة في مالقة هو علي بن حمود في سابقة فريدة لم تعرفها دولة الإسلام في الأندلس من قبل، وبعد مقتل علي بن حمود انقسم البيت الحمودي بوجود خليفتين الأول في قرطبة وهو يحيى بن علي، والذي بويع سنة ٤١٢ه/ ١٠٢١م، والثاني في إشبيلية وهو عمه القاسم، ومن مفارقات القدر أن اعترف كل منهما بالآخر مما أثار استغراب وسخرية

(١) مونتغمري واط: في تاريخ، ص١٠١.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٨٣؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٧؛ محمد عبده حتامله: الأندلس، ص ٤٢٩.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣؛ المقري: المصدر السابق، ١/ ٤٢٨.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٤١؛ سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية، ١ / ٩٨.

(٥) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٤١.

ابن حزم[١].

ظهر أربعة رجال في الأندلس كلهم تسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين، وهذا ما يثير الدهشة حتى راح كل واحد منهم يخطب له في الموضع الذي يقطنه، وهم خلف الحصري بإشبيلية الذي ادعى أنه هشام المؤيد الذي قتل في خلافة سليمان المستعين الثانية بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام المؤيد، وقد بايعه حاكم إشبيلية حينها[٢]، وشهد له عدد من الخصيان، وعدد من النساء؛ فخطب له على منابر الأندلس، وكان محمد بن القاسم بن حمود خليفة بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس خليفة بمدينة مالقة فضلاً عن إدريس بن يحيى بن علي ببشتر[٣].

إن ظاهرة تعدد منصب الخليفة في أكثر من مدينة وإن كانت ظاهرة خطيرة وغير مسبوقة، إلا أنها تدلل على أن السلطة الروحية في زمن فتنة الأندلس ممثلة بالخلافة قد انحرفت عن المسار الذي سار عليه خلفاء الدولة الأموية من قبل، وحتى الأمراء منهم فبعد أن كان الخليفة يتزعم الرعية بالسلطتين الدينية والدنيوية، ونجح في عملية الموازنة بين السلطتين، ولنا في الخليفة عبد الرحمن

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ١٣٢ – ١٣٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٢.

(٢) وللتعرف على الإعلان الذي أعلنه ابن عباد حاكم اشبيلية بمبايعة مايزعم أنه الخليفة هشام المؤيد انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٢٠٠؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ص ١٥٤؛ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، العصر الثاني، ص ٣٨؛ محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية، ص ٢٣٢ .

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٤٣.

الناصر مثال على ذلك، إذ تعد سياسته المتوازنة كسب للإسلام عندما دخل الكثير من الناس إلى الإسلام في عهده، حتى تغنى الشعراء في ذلك ابتهاجاً بما حصل[١]، بينما أصبح الخليفة في هذه الحقبة التاريخية الحرجة من تاريخ الأندلس لا يستطيع الموازنة بين السلطتين، بل راح ينساق وراء المصالح الدنيوية لجهة على حساب جهة أخرى غير مكترث لسلطته الروحية، تسانده بذلك الطبقة العليا التي تلهث من بعده وراء المصالح الخاصة متخذين الدين ستاراً للمصالح الخاصة لهم وللخليفة، حتى اتجه الخليفة وطبقته العليا إلى الاحتراف السياسي، مما جعل الرعية تتفطن لما يجري فتمردت على تلبية متطلبات السلطة الروحية للخليفة في التعبئة للجهاد[٢]، وبذلك خسر الخليفة سلطته الروحية بابتعاد العامة عنه حتى راحوا يتخبطون بمن هو أصلح لهم، وأضحت كل طائفة تختار خليفتها بنفسها في أي بقعة تشاء، وكذلك خسر الخليفة أيضاً احترافه السياسي بخروج طامعين ومنافسين له ربما كانوا أكثر قدرة وتجربة منه على إدارة الدفة السياسية للدولة سواء أكانوا من نفس طبقته أو من طبقة أخرى.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩ – ٣٠ وقد تغنى الشاعر ابن عبد ربه بذلك حين قال:

قدْ أوضَحَ الله للإسلام مَنهاجا... والناس قدْ دَخَلوا في دين الله أفواجا

وقدْ تَزَيَنت الدُنيا لِســـاكنها... كأنما لَبست وَشْياً وديباجـــــا

(٢) مونتغمري واط: في التاريخ، ص ١٠١.

obeikandl.com

ج: استعانة أهل المدن بحُكّام مدن الأندلس الأخرى

نتج عن الفتنة في الأندلس استدعاء بعض المدن لحكام من مناطق أخرى في الأندلس لقيادتها والقيام بأمور الحكم فيها، وهذا الأمر ناتج – دون أدنى شك – من ضعف السلطة المركزية ممثلة بالخليفة والذي شهد تفتت وحدة الأندلس، مما جعل حكام المدن يستقلون بقرارهم عن قرطبة ويتدبرون شؤون مدنهم دون الرجوع إلى قرطبة، فإذا ما توفى حاكم إحدى المدن أو خلع أو أزيح بانقلاب سارع أهل تلك المدن إلى استدعاء أحد من رؤساء المدن المجاورة ليقوم بحكمها وضبط أوضاعها، دون الانتظار حتى يصلهم حاكم جديد تخصصه قرطبة.

حصل ذلك في مدينة طليطلة عندما استدعى أهلها مبارك ومظفر صاحبي بلنسية لوضع حد للفوضى التي ضربت المدينة جراء خلع عبد الملك بن متيوه، وقد هنئوا لذلك من قبل الشاعر ابن دراج حين قال:

أهنيكما ما يُهنئ الدين مِنكما..... هُدى ونَدى فَليسلم الدين واسلما

وشهرٌ تولى راضيا قدْ بَلغتما..... مَداه كراما قوم الليل صوما[1]

حدث في سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م أن استدعى أهل طليطلة عبد الرحمن بن ذى النون صاحب شنتبرية لوضع نهاية للفوضى في المدينة بعد عزل أهلها

(١) ابن دراج: ديوان ابن دراج، ص ٥٢٠. إلا أن مبارك ومظفر لم يصلا في النهاية إلى حكم طليطلة، لأن المصادر المتاحة لم تذكر ذلك انظر: ابن دراج: المصدر السابق، ص ٧٠ في هامش الصفحة.

للقاضي يعيش بن محمد ابن يعيش، فما كان من عبد الرحمن بن ذى النون أن أرسل لهم ولده إسماعيل الذي يعود الفضل له في تأسيس دولة بني ذى النون في المدينة[١]، ولم يقتصر الأمر على أهل طليطلة، إذ عمل أهل البيرة على استدعاء البربر لحمايتهم من الأخطار المحيطة بهم في تلك الفترة، وفعلا استجابوا لأهل البيرة وأضفوا حمايتهم عليهم، بل وانتقلوا بهم إلى غرناطة[٢].

أما مدينة بلنسية فلما توفى صاحبها مبارك على أثر وفاة رفيقه مظفر، عقد العزم أهلها على تنصيب صاحب طرطوشة لبيب الصقلبي أميراً عليهم، إلا أنهم سرعان ما ثاروا ضده لسوء سياسته، ففر هارباً إلى طرطوشة[٣]، مما جعل وزراء بلنسية يستدعون عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول – الذي كان في سَرَقُسْطَة منذ زوال الأسرة العامرية – ونصبوه عليهم[٤]، وربما أقدم أهل قرطبة على مخاطبة عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول صاحب بلنسية يدعونه لتولي أمرها، إلا أنه اعتذر عن الحضور[٥]، كما دعا أهل قرطبة خيران العامري ومجاهد العامريين لطرد البربر وتولي أمور المدينة، وقد دخلا المدينة فعلا سنة

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٢٧٦ – ٢٧٧ .

(٢) ابن بلكين: التبيان، ص ٣٤ – ٣٦.

(٣) إن مجاهد العامري شارك لبيب الصقلبي حكم بلنسية، وقد حصل خلاف وصراع فيما بينهما، الأمر الذي جعل لبيب الصقلبي يهرب إلى طرطوشة، فإنفرد مجاهد بحكم بلنسية حتى ثار العبيد عليه فخرج منها، عندئذ بايع أهل المدينة عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٦٤.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٣/ م١/ ص ٢٤٩.

(٥) المصدر نفسه، ق٣/ م١/ ص ٢٤٦ – ٢٤٨.

٤١٧هـ/ ١٠٢٦م ومكثا بها شهرا، ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهما مما جعل خيران يترك قرطبة ويتجه إلى المرية، ثم تبعه مجاهد بعد وقت قصير متوجها إلى دانية(١).

يبدو أن أهل الأندلس لجأوا إلى هذه السياسة في استدعاء من يتولى شؤون مدنهم من مدن أخرى، وهذا دليل واضح على انعدام ثقتهم بحكومة قرطبة، ومعرفتهم بضعفها، وعدم قدرتها على تحمل مسؤولياتها إزاء ما تعرضت له من تحديات، وتحديدا من الخلفاء المتعاقبين على الخلافة، ومعرفتهم بعجزهم في إخماد نار الفتنة المستعرة، والسيطرة على أوضاع الأندلس، ورغبتهم في وضع أنفسهم تحت حماية صاحب جند يعتقدونه المنقذ والحامي لهم من الأخطار المحيطة بهم سواء أكانت داخلية أو خارجية.

وقد استمرت هذه السياسة طوال عصر دويلات الطوائف، إذ استدعى أهل المرية عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول صاحب بلنسية بعد مقتل زهير العامري(٢). والحال ذاته بالنسبة إلى مدينة طرطوشة عندما استصرخ أهلها صاحب سرقسطة سليمان بن هود بعد ثورتهم على لبيب الصقلبي(٣)، مما يدلل على ضعف دويلات الطوائف تلك، وعدم قدرتها على ترتيب أوضاعها الداخلية، الأمر الذي يجعل الباحث يطلق على عصر الطوائف عصر الضعف والفرقة.

---

(١) El Sabio Alfonso: primera cronica general de Espana , t.II, No, No , P. ٤٦٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٦٧.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ / م١/ ص ٢٠ – ٢١.

ثانيا: المظاهر الاقتصادية

أ: تدهور قوى الإنتاج

- الزراعة

تعد قوى الإنتاج ركيزة أساسية من ركائز الاقتصاد في الأندلس، وقد تأثرت كثيراً بأحداث الفتنة التي ضربت أطنابها في المجتمع الأندلسي، إذ تحطمت موارد الدخل، ومنها الزراعة التي تعد المصدر الرئيسي للدخل في المجتمع الأندلسي، ولم تستطع الدولة أن تحرك ساكناً لحماية مواردها وممتلكاتها ولا ممتلكات الناس، ولهذا استغل الأمراء والحكام مدنهم وأريافهم، وحرموا الدولة من معظم مواردها[١]، وما إن بدأ الصراع في قرطبة حتى هجر المزارعون مزارعهم وضياعهم، ولحق معظمهم بقرطبة تفادياً لما يلحق بهم من أذى البربر، فمات أكثرهم جوعاً أو قتلوا خارجها[٢].

نهب البربر القرى القريبة، واستولوا على كل زرع أحاط قرطبة يحصدون منه ويأكلون[٣]، وعندما هدأت الأوضاع نسبياً لم تجد الأرض من يزرعها بسبب هجرة الأغلب الأعم من المزارعين إلى مناطق أكثر أمناً وأماناً بالأندلس، حتى خربت تلك القرى الزراعية ((وبالفتنة الكائنة على رأس الأربعمائة سنة من الهجرة محيت رسوم تلك القرى))[٤].

---

(١) محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي، الدار التونسية، تونس، د. ت، ص ٨٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ١٠٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٠٦ – ١٠٧.

(٤) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٣٧؛ محمد عبد الوهاب خلاف: دراسات في تاريخ، ص ٢٨.

أما الثروة الحيوانية فهي الأخرى تأثرت بما ساد البلاد من فوضى، ومغادرة أهل القرى لديارهم حتى فنيت مواشيهم، وعندما اشتد حصار البربر على قرطبة هجم الجياع من أهلها على حظائر الأغنام والمواشي، وسرقوها وذبحوا ما بها من حيوانات، وباعوا القسم الآخر إلى الناس[١].

- الصناعة

أما الصناعة فأصابها مثلما أصاب الزراعة من تدهور، إذ تأثرت الصناعات الغذائية بما حصل في قرطبة من فتنة نتيجة لفقدان المواد الأولية للصناعة من المواد الخام، كالزيتون الذي يغرس في جبل العروس، والأزهار المختلفة الأنواع التي تستخدم في صناعة الزيوت العطرية، وكذلك الكروم التي تستخدم في تجفيف العنب، وتوقف إنتاج الكتان الذي يزرع حول قرطبة، بسبب تدمير البربر لما حول قرطبة[٢].

أما صناعة التعدين فقد أصابها ما أصاب الصناعات الأخرى، بسبب الحروب والاضطرابات في قرطبة التي حرمت من الاستفادة من استخراج الذهب والفضة المتواجدان في منطقة المرج القريب من حصن المدور التابع لقرطبة[٣]، وهذا دون أدنى شك أعاق عملية إصدار العملة لما لذلك من تأثير

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ١٠٢، ١٠٦ .

(٢) يحيى أبو المعاطي محمد عباسي: الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس ٢٣٨-٤٨٨ه، رسالة جامعية – دكتوراه – غير منشورة، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٤٢١ه/ ٢٠٠٠م، ص ٢٠٥.

(٣) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٤٣.

سلبي كبير على النظام المالي في الأندلس، إذ يستخدم الذهب والفضة في سك العملة، فضلاً عن الاستخدامات الأخرى كصناعة الحلي.

- التجارة

أصاب التجارة ما أصاب مثيلاتها الزراعة والصناعة من دمار وشلل تام، وذلك للارتباط الوثيق بين النشاط التجاري واستتباب الأمن، واستقرار الأوضاع السياسية، وعندما حلت الفتنة توقفت الصادرات والواردات نتيجة انعدام الأمن، وحدثت بعض الحرائق في المنشآت التجارية كما حصل لسوق السرادق القريب من قنطرة قرطبة عندما تعرض للحرق(١)، وحرق أيضاً فندق أبن أبي الأصبغ الوزير بوادي أرملاط، فضلاً عن الحريق الذي دمر سوق الخشابين وما جاوره من أسواق، كما ونهب العبيد مالم تطله النار(٢).

ومما يذكر أن التجار تحملوا أعباء كبيرة تتمثل في تدبير الأموال اللازمة للإنفاق على تلك الحروب التي تعرضت لها قرطبة (٣)، وحتى بعض التجار الغرباء الوافدين على الأندلس صارت وجهتهم نحو المدن الآمنة (٤)، وأما فيما يتعلق بالأَسواق فقد خلت من الناس نتيجة لانعدام الأمن أثناء النهار فإذا حل المساء وكف الطلب عنهم انتشروا تحت جنح الظلام لقضاء حاجاتهم(٥)،

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ٨٠؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ص ١٨٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ٨٨، ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ٣ / ٩٩، ١٠٤.

(٤) ابن بشكوال: الصلة، ت ٦٥٤، ١ / ٢٩٧ .

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ١٠٠ .

وكان ذلك نتيجة لسوء تدبير القيادات الحاكمة في قرطبة في عهد الخليفة هشام المعتد بالله إذ ((كسدت أسواق قرطبة ولم تسلك سبلها))[١].

ب: إفلاس خزينة الدولة

يعد الاقتصاد الشريان الحيوي لأي بلد، والخزينة هي المكان الذي تجمع به موارد ذلك الاقتصاد، ومن ثم تقوم الخزينة بتمويل احتياجات ومتطلبات الدولة من تلك الموارد المخزونة. وفي زمن الفتنة التي ضربت أطنابها في الأندلس بعد زوال تسلط الأسرة العامرية، ذهبت موارد الدولة أدراج الرياح، وأفرغت الخزينة من محتواها لإدامة الصراعات الداخلية[٢]، فضلاً عن انعدام الموارد الممولة للخزينة والخليفة ((... الى أن كان الأمر في آخر أيام بن عامر... فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان...))[٣]، بعد أن كانت ترفل بالملايين في بداية عصر الخلافة الأموية.

إن قلة الموارد في خزينة الدولة تكبل وتقيد الخليفة أو الحاكم في تجهيز حملات عسكرية لبسط سيطرته على مناطق التمرد، مما يؤدي إلى استفحال أمر العدو. وعندما آلت الأمور إلى الخليفة سليمان المستعين ولى عهده ابنه محمد[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ق٣/ م١ /ص ٥٢٢.

(٢) كان الخليفة محمد المهدي يعطي الذهب والفضة إلى أهل برشلونه لأجل القتال معه لكي يحقق الانتصار على خصمه سليمان المستعين انظر:
Guichard: OP.Cit , p.١٤.

(٣) الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري: سراج الملوك، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، تقديم: شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٢٥ه / ١٩٩٤م، ٢/ ٤٩٨.

(٤) ابن حزم: جمهرة، ص ٤٥٢؛ المراكشي: المعجب، ص٣٣.

ولكن دون نفقة تذكر أو عطاء لقلة المال[١]، وبذلك فإن قلة المال في دولة سليمان المستعين يفسر لنا أنه أحد أسباب فشل حملته في العاشر من جمادي الآخر ٤٠٠هـ/ الثلاثين من يناير- كانون الثاني ١٠١٠م لبسط سيطرته على طليطلة والثغر الأوسط[٢].

إن قلة المال وارتفاع الأسعار كانت من أسباب عجز الخليفة هشام المؤيد عن أداء عمله واتخاذ أي قرار، عند حصار البربر لقرطبة[٣]، وكذلك ما حصل بين يحيى بن علي ابن حمود والبربر عندما أغدق المال عليهم فراح يفرغ بيت المال حتى ضاقت عليه التكاليف[٤]، وهذا الأمر ينطبق على الخليفة المستظهر على الرغم مما يمتلك من قدرات ذاتيه، إلا أن انعدام المال أعياه إذ ((طلب المال فلم يجده))[٥]. ومما تقدم تتضح أهمية المال في اتخاذ القرار من قبل الخليفة، وأن قلة المال وإفلاس الخزينة يجعل السلطة العليا مسلوبة الإرادة ومقيدة عن اتخاذ القرارات الحاسمة التي تهم البلد.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٢٥ – ١٢٦؛ أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر الخلافة، مطابع ألف باء – الأديب، دمشق، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٤م، ص ٢١٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٩٣.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٠٨ – ١٠٩.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٤٨٢ – ٤٨٣ كما أن العملة التي كانت قيمتها كبيرة في صدر عصر الخلافة وتحديدا في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، انخفضت قيمتها في هذه المرحلة وهي فترة أو مرحلة الحكام الصغار انظر:
Lmamuddin: OP.Cit , P. ١٣٦.

(٥) مؤلّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٤٥.

وقد بلغ من عجز السلطة في قرطبة من توفير المال اللازم لقتال البربر، وإفلاس الخزينة أن قام القائمون على السلطة ببيع مكتبة القصر الخلافي من أجل الحصول على المال[١]، كما طلب من التجار المساعدة في ذلك، مما أدى ارتباك الأوضاع وانتشار الفوضى في قرطبة نتيجة نقص المال[٢].

خلاصة القول أن إفلاس خزينة الدولة كان له كبير الأثر على كافة أوضاع الدولة، بل كان المحرك الأساسي لها، إذ تبرز أهمية المال على قرار السلطة السياسي في الأندلس.

ثالثا: المظاهر الاجتماعية

أ- الصراع العنصري

عاش المجتمع الأندلسي في تناحر وتصارع وصل إلى حد الاقتتال فيما بين مكونات المجتمع منذ سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م وما بعدها، وبدأ في ثورة محمد المهدي وأهل قرطبة على الحاجب عبد الرحمن شنجول[٣]، واستمرت حالة الهيجان وتطورت إلى التنكيل والقتل للبربر في قرطبة من قبل أهلها وبتشجيع ومباركة من الخليفة محمد المهدي[٤]، ومن الطبيعي أن يكون لكل فعل رد فعل، وهذا ما حصل فعلا عندما أراد البربر الثأر من أهل قرطبة انتقاما لما

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ٦٧.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ١٠٤؛ أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٢١٣ .

(٣) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٧٩.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٧٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١١٢.

أصابهم[١]، ليبدأ فصل من التناحر مابين البربر وأهل قرطبة، إلا أن هذا التناحر أخذ طريقاً جديداً من خلال الاستعانة بالنصارى عندما استنجد سليمان المستعين ومعه البربر بالنصارى لقتال محمد المهدي وأهل قرطبة[٢]، وكانت معركة حامية انتصر فيها سليمان المستعين عرفت بمعركة قنتيج أو **قنتيش**[٣] قتل فيها أعداد كبيرة من المسلمين[٤].

لعل مما يزيد الأمور سوءاً هو الاستعانة بالنصارى، تلك الاستعانة التي لم تكن وليدة الساعة وإنما هناك إشارات إلى أن القائد غالب الناصري استعان بالنصارى في حربه ضد المنصور بن أبي عامر الذي أراد تصفية خصومه[٥]،

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٧/ ٣٧١. اختلفت المصادر في تحديد الطرف الذي استنجد به من النصارى، فمنهم من قال استنجدوا بسانشو بن غرسية انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣ ومنهم من قال استنجدوا بابن أذفونش انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ٤/ ١٨٠ ولكن مهما يكن من أمر فكلاهما نصارى ولا يختلف الأمر عند الاستعانة بهذا أو ذاك.

(٣) وهو اسم جبل حصلت فيه المعركة انظر: ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٤٣.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٣. وقد تغنى بتلك المعركة الشاعر ابن دراج ابتهاجا بالنصر انظر: ابن دراج: ديوان ابن دراج، ص ٦٣ – ٦٤. ومن المعارك الأخرى التي دارت بين محمد المهدي وسليمان المستعين هي عقبة البقر والتي راح ضحيتها عشرة آلاف من المسلمين انظر: ابن سماك: الزهرات المنثورة، ص ١٢٥ بعض المراجع النصرانية اكتفت بان أعداد القتلى لا يحصى انظر: El Sabio: OP,Cit , P ٤٥٦.
ولكن على الرغم من هول المعركة وانتصار محمد المهدي فيها إلا أن عدد الضحايا الوارد يبدو مبالغا فيه إلى حد ما.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٩.

ويبدو أن النصارى هنا كانوا مرتزقة يعملون مقابل ثمن يقدم لهم جزاء خدماتهم في القتال.

سعى الخليفة سليمان المستعين جاهداً من أجل تثبيت سيطرته على الدولة، وفي الوقت نفسه تحالف محمد المهدي ومعه الفتى واضح مع الجانب النصراني على نصرة محمد المهدي وإعادة الخلافة إليه وقتال سليمان المستعين ومناصريه من البربر، مقابل شروط باهظة ومذلة فرضها النصارى وقد وافق عليها الفتى واضح ومن ورائه محمد المهدي(١).

إن تحالف محمد المهدي مع نصارى برشلونة(٢) لم يكن تحالفاً مع النصارى حسب، وإنما كان تحالفاً مع اليهود أيضاً، لأن برشلونة وحسب تركيبتها السكانية كان ((اليهود بها يعدلون النصارى كثرة...))(٣) وهذا يعني أن نصف سكانها من اليهود، ومن المؤكد أن يكونوا قد شاركوا في هذا التحالف، فضلاً عن وجود شخصية مهمة في جيش النصارى هو أمين بيت المال القطلاني

---

(١) المصدر نفسه، ٣/ ٩٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٤؛
El Sabio: OP,Cit , P ٤٥٦.
كان من أبرز الشروط المذلة هو استيلاء النصارى على مدينة سالم، وان نساء البربر وأموالهم ودماءهم حلال للنصارى انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٩٤. فضلاً عن الأعطيات الأخرى، والتي تمثلت بأشياء ثمينة تمثلت بمعدني الذهب والفضة الذي أخذه الكتلونيين (سكان برشلونة) ووضعوه في أحزمتهم انظر:
Guichard .: OP,Cit , p.١٤

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٩٤ – ٩٨؛
Ibid. P. ١٤.

(٣) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٤٢.

وكان يهوديا[١]، وبذلك فإن محمد المهدي والفتى واضح تحالفا مع اليهود والنصارى ضد المسلمين، وهذه سابقة خطيرة لم نعهدها من قبل لأن الدين الإسلامي يحرم مناصرة اليهود والنصارى ضد المسلمين واتخاذهم أولياء قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فإنهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[٢]، إذ يعد ذلك ابتعاداً عن نهج الدين الإسلامي ومخالفة لا تغتفر لكل مؤمن، فكيف لمن يمثل خلافة المسلمين، وهذا يؤكد ما ذهب إليه من قبل من أن الخليفة الأموي تخلى عن سلطته الروحية بابتعاده عن الدين الإسلامي الحق.

كان استمرار التناحر والتصارع فيما بين مسلمي الأندلس يكون خسارة كبيرة للإسلام وللمسلمين وأن المستفيد الأول هم النصارى من خلال قتلهم للمسلمين، فضلاً عن نفقات الحرب والأعطيات التي حصلوا عليها والتي تحملها أهل قرطبة، بل أخذت حتى من مال **الاحباس**[٣] المودع في مقصورة الجامع عنوه بعد كسر باب المقصورة عندما تعذر الحصول عليه وسلمت

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ٩٨ .

(٢) سورة المائدة: آية ٥١.

(٣) هو حبس العين عن تمليكها لأحد من العباد والتصدق بالمنفعة على الفقراء، والوقف قد يكون وقفاً خيرياً، يصرف من أولي الأمر إلى جهة خيرية كالفقراء والمساجد والمستشفيات، أو وقفاً أهلياً وهو ما جعل استحقاق الريع فيه أولا إلى الواقف مثلا ثم لأولاده ثم لجهة بر لا تنقطع حسب إرادة الواقف. انظر: محمد زيد الابياني بك: مباحث الوقف، مطبعة علي سكر أحمد، ط٢، القاهرة، ١٣٣٠ه/ ١٩١٣م، ص ١-٢ .

للنصارى[١]. غير أن النصارى لم يكتفوا بما حصلوا عليه من موارد ماديه، بل راحوا يصطادون في الماء العكر ويستغلون فرقة المسلمين للحصول على موطئ قدم على الأرض، كما أن ((سليمان والبربر راسلوا ملك الفرنج يستمدونه وبذلوا له تسليم حصون كان المنصور بن أبي عامر قد فتحها منهم))[٢]، الأمر الذي حفز النصارى على مساومة هشام المؤيد على هذه الثغور ومنها ثغور قشتالة، والتنازل عنها وإلا ناصروا البربر، مما جعل هشام المؤيد يوافق على طلبهم مضطرا[٣].

يظهر انعطاف خطير في العلاقة بين المسلمين والنصارى في الشمال، فبعد أن كان النصارى مرتزقة يشترون بالمال، أصبحوا يطلبون التنازل عن الأراضي التي بسط المسلمون سيطرتهم عليها بالدم والجهد وقدموا لأجلها التضحيات الجسام من قبل، وفعلا تم للنصارى ما يبغون وحصلوا على ما يريدون، بسبب التناحر والتباغض والصراعات فيما بين المسلمين أنفسهم.

لكن الأدهى والأمر من ذلك في تدخلات النصارى في الشأن الأندلسي هو قدرتهم على تثبيت من يرغبون من الخلفاء في السلطة، وإزاحة من لا يريدون عن مركز الخلافة تبعا لمصالحهم الخاصة، فتارة يساندون محمد المهدي

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ٩٨؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٦٤٨ – ٦٤٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٥٨.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٧؛ المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٨ – ٤٢٩؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٦٥١؛
El Sabio: OP.Cit , P. ٤٥٩.

على حساب سليمان المستعين، وتارة أخرى يساندون سليمان المستعين على حساب محمد المهدي.

وحتى عندما تولى زمام الأمور في الأندلس الحموديون استمر التناحر، وعمل الحموديون على قهر البربر في بداية حكمهم[١]، ثم مالبثوا أن خاضوا صراعات فيما بينهم، وأخرى واجهوا فيها رفضاً لهم من قبل أهل قرطبة[٢]، ونتيجة لذلك عزم أهل قرطبة على رد الخلافة للمروانيين[٣].

وصفوة القول أن التناحر بين عناصر مجتمع الأندلس فتح الباب على مصراعيه لتدخل النصارى وأخذ الثأر من المسلمين، والحصول على مكاسب لم يحلموا يوما فيها، مما جعل نصارى الشمال أقوى من ذي قبل عندما حصلوا على مواقع مهمة على الأرض وأذلوا المسلمين.

ب- فقدان هيبة الخليفة

إن الحديث عن فقدان هيبة الخليفة في الأندلس يعود إلى المرحلة التي تلت وفاة الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م، وتولي منصب الخليفة من قبل هشام المؤيد إذ كان صبياً، فراحت الخلافة تتقاذفها أمواج الحجاب والطامعين بالسلطة، وهذا المنصور بن أبي عامر عمد إلى حجب الخليفة هشام

(١) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٤١؛ ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٩٧.

(٢) ابن بسام: المصدر السابق، ق١/ م١ /ص ٩٩.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٣٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٤؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٦٠.

openkandil.com

المؤيد والحجر عليه[١]، وكان المنصور بن أبي عامر يوكل بالخليفة هشام المؤيد من يمنعه التصرف، والظهور أمام الناس عند غيابه في الغزوات إلى أن يعود من تلك الغزوة، وعندما شيد المنصور بن أبي عامر الزاهرة، وانتقل إليها بحاشيته ترك الخليفة هشام المؤيد بقصره وبنى حول القصر سوراً دائرياً ودعمه بالبوابين وجعل العيون عليه[٢]، وكان للسياسة التي اتبعها المنصور بن أبي عامر، والتي كان منها الحجر على الخليفة هشام المؤيد، ومنعه من الاتصال بالناس تأثيره الكبير على الأندلس والخلافة، إذ تعد سياسة الحجر هذه ومنع الخليفة من لقاء الخاصة والعامة إلا ماندر، من السياسات التي تعني من بين ما تعنيه التسلط على الحكم من خلال ما قام به المنصور بن أبي عامر عندما جعل الخلافة شكلاً بدون مضمون، فضلاً عن السيطرة التامة على شؤون الدولة.

وقد ترتب على ذلك الانتقاص من هيبة الخليفة تلك التي كان لها شأن كبير في الأندلس، والعالم الإسلامي منذ أن أعلن الخلافة الأموية في الأندلس الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ه/ ٩٢٨م، وهذا الانتقاص جاء من خلال تجريد الخليفة من صلاحياته كافة، حتى أصبح ألعوبة لكل من هَبَ ودبْ، وقد عبر الخليفة هشام المؤيد عما يجول في نفسه، وعن تجرده من أغلب مميزات الملك في بيتي شعر حين قال:

أليسَ من العَجائبِ أن مِثلي يَرى ما قَلَ مُمتَنعاً عَليــهِ

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٢؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٣١.

(٢) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٢٢؛ النويري: نهاية الارب، ٢٣ / ٤٠٤.

وتُملكُ باسمهِ الدُنيا جميعا وما منْ ذاكَ شيء في يديهِ[١]

لذلك فإن ضياع هيبة الخلافة جعل الناس يستهينون بشخص الخليفة، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما ثار العامة من أهل قرطبة مخاطبين الخليفة هشام المؤيد ((لا حاجة لنا بك...))[٢].

لكن الأدهى من ذلك في فقدان هيبة الخليفة والتلاعب بشخصه عندما تم إخفاء الخليفة هشام المؤيد من قبل محمد المهدي ليظهره ثانية للناس عندما احتاج إلى ذلك، ومن ثم يقتل الخليفة في عهد سليمان المستعين، ليزعم بعد ذلك بنو عباد ولأجل أن يكون لهم دور سياسي بأن الخليفة هشام لم يمت وهو عندهم في مدينة اشبيلية[٣]، وقد سبق زهير العامري بني عباد عندما امتد نفوذ الحموديين فأراد الحد من ذلك النفوذ، إذ أحضر رجلاً سقاءً شديدَ الشبه بهشام المؤيد المشكوك في موته، وجدد البيعة له مموها به مدة من الزمن، وذلك في سنة ٤٢٦ه/١٠٣٥م ثم طرده[٤]، وكذلك ما حصل بين يحيى ابن علي بن حمود والبربر عندما سيطروا عليه حتى خرقوا هيبته[٥]، ومن كل ذلك نستدل على حجم الاستهانة بشخص الخليفة وضياع هيبته، بل والاستهتار بتلك السلطة الروحية التي يملكها، والتي ظلت ردحاً من الزمن مسيطرة على

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ٢٨٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٠ .

(٣) أحمد مختار العبادي: في تاريخ، ص ٤٦٧؛ إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص ٣٥٤.

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٤٨٢ – ٤٨٣.

عقول ومشاعر المسلمين.

وكان مما تعارف عليه الناس أن الخليفة يملك سلطتين الأولى السلطة الدينية أو الروحية، والثانية هي السلطة السياسية، وأن خلفاء الأندلس في هذه المرحلة تخبطوا في المزج بين الدين والسياسة، إذ إن العلاقة بين السياسة والدين لم تكن بتلك السهولة، فالسياسة لها خصوصيتها، ونشاطها يخضع لاعتبارات سياسية، ولكن يحصل أحيانا في العالم الإسلامي أن ممارسات السياسة يتم تنفيذها ضمن شبكة الأفكار الدينية[١]، لإيجاد المبرر الديني للفعل السياسي.

أما في الأندلس فإن السياسة انطلقت من الإطار الديني[٢]، وبما أن الخليفة هناك لم يملك شيئاً لنفسه حتى فقد هيبته، وفقد الجانب الديني على حد سواء نتيجة السلوكيات والممارسات التي جعلته يفقدهما معا، فهذا الخليفة محمد المهدي أوغل بفعل الموبقات[٣]، وكذلك من هو بشاكلته من الخلفاء الضعفاء وغير المؤهلين للمنصب ممن جاؤا من بعده، وبذلك فإن الخليفة ضاعت هيبته وأصبح وجوده كعدمه، وبذلك زال من مثل العقيدة الإسلامية والدين في هذه المرحلة، لذلك أصبحت السياسة غير فعالة من دون مبرر ديني أو إطار ديني تنطلق منه.

(١) مونتغمري واط: في تاريخ، ص ١٠٠.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ٨٠؛ المقري: نفح الطيب، ١ / ٤٢٦ – ٤٢٧.

بذلك تعطل تأثير الجانبين الديني والسياسي في حياة المجتمع الأندلسي، وغابت الإرادة في الجانب الديني والسياسي معا وراح يتلاعب بها حكام فقدوا هيبتهم قبل سلطتهم، مفضلين مصالحهم الشخصية على مصالح الدولة.

خلاصة القول أن فقدان هيبة الخليفة وضعفه وقلة حيلته ترتب عليه فقدانه للإطار الديني الذي تنطلق منه السياسة، وبذلك فقد الخليفة السلطتين الدينية والسياسية، فضلاً عن فقده لهيبته كخليفة.

ج- تعاظم دور طبقة العامة

عبر العامة عن رأيهم بالأحداث الصعبة التي ألمت بالأندلس بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر، وخاصة ما تعلق باستبداد المنصور بن أبي عامر وتولي الأمر لخليفة صغير السن وهو هشام المؤيد، إذ عدوا ما حدث ويحدث من علامات اقتراب الساعة والهلاك المبين تعبيراً منهم عن هول ما حدث شعراً[1].

غير أن الأمور انعطفت انعطافاً جديداً في مسار الأحداث بعد تسلط عبد الرحمن شنجول على مقاليد الأمور في الأندلس، إذ شكلت الطبقة العامة التي

---

(١) ومن هذا الشعر:

إقتربَ الوَعدُ وحانَ الهلاكْ وكلُ ما تَكرهُ قدْ أتاكْ

خليفةٌ يحضرُ في مكتبٍ وأمهُ حُبلى وقاض ـــــ

حذفت الكلمة الأخيرة من البيت الثاني لأنها مخدشة للحياء.

انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ □ ٢٨٠؛ النويري: نهاية الإرب، ٢٣/ ٤٠٤- ٤٠٥

ساندت محمد المهدي في ثورته ضد الأسرة العامرية قوة فاعلة ومؤثرة في مسار الأحداث في الأندلس عندما بايعوا خليفتهم الجديد محمد المهدي وتهافتوا عليه تهافت الفراش على النار[١].

يبدو أن العامة كانوا مهيئين للثورة ومساندة محمد المهدي والإطاحة بالأسرة العامرية، وقد ظهر ذلك بوضوح في وصية المنصور لابنه عبد الملك المظفر عندما استشعر بما في صدور العامة حين قال: ((وإن انقادت إليك الأمور بالحضرة، فهذا وجه العمل؛ وإن اعتاصت عليك، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة، ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة، فتنسوا آمالكم في بطون بني أمية وشيعتهم بقرطبة؛ فإن قاومت من توثب عليك منهم، فلا تذهل عن الحزم فيهم؛ وإن خفت الضعف، فانتبذ بخاصتك وغلمانك إلى بعض المعاقل التي حصنتها لك))[٢]. وبذلك يكون المنصور بن أبي عامر قد تنبه لما ستؤول إليه الأمور بعد وفاته لأن الأوضاع كانت مهيأة للانفجار عندما تسمح الظروف، وذلك لوجود أرض خصبة لبذرة للثورة في نفوس العامة. استغل محمد المهدي ما في نفوس العامة وراح يعد العدة ويخطط بمساعدة ومؤازرة العامة للقيام بالثورة بدعاية قوية عن طرق دعاة خصصوا لهذا الأمر، وأخذت البيعة له في السر عن طريق أحد دعاته من العامة وهو صاعد بن عبد الوهاب الجزار[٣]. وعند قيام الثورة أمر محمد المهدي بكسر سجن العامة وأطلق سراح

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٦١.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٩٢؛ انظر: ملحق رقم (٧)، ص ٢١٧.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٥٣ – ٥٤ .

المسجونين من اللصوص وأصحاب الجرائم وكانوا عوناً له فيما سعى إليه[١].

يتضح مما سبق أن شوكة العامة بدأت تقوى شيئاً فشيئاً، وأن نجاح محمد المهدي بالسيطرة على قرطبة ما كان ليتم لولا مساعدة العامة الذين كانوا الدعاة وجامعي الأنصار والمخططين ومادة الثورة وقد شمل ذلك حتى السجناء منهم، بل وكانوا عماد الدولة، وحتى عند قيام هشام الرشيد مع البربر ضد محمد المهدي ما كان لينتصر هذا الأخير لولا مؤازرة العامة له[٢]، وبذلك يمكن تسمية دولة محمد المهدي بدولة العامة بقيادة أموية.

كان سرور العامة بولاية محمد المهدي سروراً عظيماً عندما أقاموا الولائم والأفراح أياماً[٣]، ولكن يبدو أن هناك سبباً مضافاً يكمن وراء تلك الاحتفالات والمسرات هو تحول أعداد كبيرة من العامة من أصحاب مهن بسيطة كحجامين وجزارين وزبالين وكنافين إلى موظفين في الدولة حتى بقت قرطبة أياما لا يوجد فيها حجام ولا كناف ولا ذو مهنة بسيطة[٤]، إذ صار لهم شأن في الدولة الجديدة ((... راجين تمام أملهم وانتظام أمرهم...))[٥]. كان لتعاظم أمر عامة قرطبة أثر على سليمان المستعين الذي عمل على الابتعاد عن

(١) ابن عذارى: المصدر نفسه، ٣/ ٥٦؛ عبد المنعم الهاشمي: الخلافة الأندلسية، ص ٥٧٨.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٨٤. على الرغم من أن العامة كانوا سنداً إلى محمد المهدي إلا أنهم كانوا أحد أسباب هزيمته في معركة قنتيش بسبب قلة خبرتهم بفنون القتال انظر: أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٢٠٩.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٦١؛ أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٢٠٤.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ٧٤.

عامة قرطبة والاحتكاك بهم والتوجه إلى الزهراء مع جيشه من البربر منعا لأي احتكاك بهم لأنهم كانوا يبغضون البربر[١].

لما تمت البيعة لعلي بن حمود في قرطبة كان على علم بتعاظم دور العامة وثقلهم في مجريات الأحداث، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما عمل على كسب ودهم ومعاملتهم بالحسنى في بداية حكمه ((... فكرم منازلهم، وأجمل خطابهم...))[٢]، إلا أن سياسة علي بن حمود تغيرت بعدما استشعر من العامة بوجود دعوة في قرطبة لغيره، ونتيجة لثقل العامة في سير الأحداث وتأثيرهم الواضح على الأوضاع السياسية فقد صمموا على إعادة الدعوة إلى الأمويين و ((جبر الدعوة المروانية)) وقد تم لهم ذلك عندما اختاروا أحد أبناء الأمويين وهو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار[٣]، الذي ما إن قدم عليهم مع عدد كبير من الجند والعامة وبمجرد دخوله المسجد الجامع حتى هتفوا بشعاره وحسموا أمرهم[٤]، وهذا دليل آخر على ثقل ورجحان كفة العامة وتعاظم دورهم.

وغاية الأمر أن دور العامة راح يتعاظم بالتدريج حتى وصل إلى مرحلة عظيمة، ويحسب له حساب من أي خليفة يحكم قرطبة بل واستطاع من خلال دوره الكبير أن يختار خليفته بنفسه، وكان ميل العامة طيلة تلك المرحلة إلى المروانيين.

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١ / ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ق١/ م١/ ص ٩٧.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٤؛ أحمد بدر: المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٤) ابن بسام: المصدر السابق، ق١/ م١/ ص ٤٩ – ٥٠.

د- تعاظم الخطر النصراني

استغل ملوك إسبانيا النصرانية الصراعات الداخلية في الأندلس في وقت مبكر الأمر الذي أدى إلى إضعاف الجبهة الداخلية وإثارة القلاقل، إذ حدث مثل ذلك في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما غضب على أحد أقربائه من بني إسحاق بن أمية، وقتل كبيرهم أحمد بن إسحاق بسبب ما ظهر منه من تآمر عندما اتصل بالفاطميين، وتحريضه لبني تجيب على الثورة ضد الناصر، ولكن سرعان ما لجأ أخ للمقتول وهو أمية بن إسحاق إلى شنترين في غرب الأندلس، وأعلن الثورة ضد الناصر من هناك، وانتهز راميرو الثاني ملك ليون الفرصة واتصل به واستقدمه وعينه وزيراً، وأشركه في معركته ضد الناصر، مما جعله يزود راميرو الثاني بالمعلومات عن جيش الناصر ونقاط الضعف والقوة في جيش المسلمين مما كان له كبير الأثر في تحقيق النصر وهزيمة الناصر في معركة الخندق ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م[1].

لكن تدخل ملوك إسبانيا النصرانية ازداد بشكل ملحوظ، وأصبح أكثر فعالية من ذي قبل في زمن الفتنة التي عصفت بالأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري، إذ استغل النصارى ما نجم من صراع دامي بين خلفاء بني أمية الأواخر على تولي منصب الخلافة فراحوا يساعدون فريقاً ضد الآخر، وكانت استعانة هؤلاء الخلفاء الأواخر من بني أمية بالنصارى دليلاً واضحاً لما وصلوا إليه من خور وضعف وهوان، فضلاً عن فقدانهم للحمية الدينية، كما أن تدخل ملوك إسبانيا النصرانية بهذا الشكل السافر في شؤون الأندلس

(١) ابن الأثير: الكامل، ٧/ ١٤٥ – ١٤٦؛ رجب محمد عبد الحليم: العلاقات، ص ١٨٥.

الداخلية أضعف الجبهة الداخلية للأندلس، وزاد من احتدام الصراع ما بين مسلمي الأندلس مما أدى إلى تعميق الانفصال وزيادة الأحقاد فيما بينهم، الأمر الذي أضعف المسلمين وزاد من قوة أعدائهم وجعلهم لقمة سائغة لنصارى الشمال يلتهمونها متى رغبوا(١).

لعل أقرب وصف لدولة الإسلام في الأندلس في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الأندلس التي راحت تتقاذفها أمواج النصارى وتتلاعب بمقدرات المسلمين وأرواحهم بعد أن قويت شوكتهم إذ وصفت بأنها ((دولة كفاها ذماً أن أنشأها شانجة، فقشعها أرمنقند، وثبتها الجلالقة، ومزقتها إلافرنجة...))(٢).

يبدو من خلال ما تقدم أن النصارى أضحوا يتحكمون في الشأن الأندلسي بشكل واضح، فينصّبون من ينصّبونه، ويزيلون من لا حاجة لهم به تبعاً لمصالهم الخاصة، وما تمليه عليهم ظروف تلك الحقبة، محققين المكاسب الكبيرة على حساب المسلمين في الأندلس وإنجازاتهم السابقة.

إن تنامي قوة النصارى في هذه المرحلة ناجم بالدرجة الأساس من الفرقة التي استشرت بين المسلمين واستعانتهم بالنصارى مما جعل الضعف يسري في جسد الدولة الإسلامية في الأندلس، وفي الوقت نفسه زاد هذا الضعف من تنامي قوة النصارى الذين عرفوا نقاط الضعف والقوة عند المسلمين، واستمر

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٩٤ – ٩٧؛ رجب محمد عبد الرحيم: المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٣٦.

هذا الحال في عصر دول الطوائف عندما تصارعت تلك الدول فيما بينها واستعانت بملوك إسبانيا النصرانية حتى اضطر المسلمون لدفع الجزية لهم في سابقة خطيرة عبرت عن تعاظم شأن ملوك النصارى وقوتهم مقابل الضعف والذل والهوان الذي عاشه حكام دول الطوائف، وانتهى الأمر بسقوط طليطلة قاعدة الثغر الأوسط عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م(١).

بلغت حالة الضعف عند ملوك الطوائف أوجها لما سيطر الفونش السادس ملك قشتالة على مدينة طليطلة وسقطت بين يديه فهرع حكام دول الطوائف مهنئين، ومباركين له هذا الإنجاز، وحاملين معهم الهدايا ومعلنين له فروض الطاعة والولاء، وبلغ من سخريات القدر أن أحد هؤلاء الحكام الضعاف كان قد كافأه ملك قشتاله على هديته له أن أهداه قرداً فراح يفخر به بين ملوك الطوائف(٢).

إن سقوط مدينة طليطلة بهذا الشكل المريع والمخزي لهو دليل واضح على فشل حكام ملوك الطوائف في إدارة حكم دولهم، كما أن ذلك الحدث يبرهن على تعاظم قوة الممالك النصرانية في الشمال، وأن هذا التعاظم والنمو المتزايد لتلك الممالك ناجم عن انعكاس لحالة الضعف والفرقة والتناحر التي تعد سمة من سمات حكام دول الطوائف.

وبعد أن تم تناول مظاهر سقوط الخلافة سيأتي لاحقاَ دراسة وقائع سقوط

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٧٨ – ١٨١؛ رجب محمد عبد الحليم: العلاقات، ص ٢٧٢.

(٢) رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٨٧.

الخلافة ونتائجه في الفصل القادم.

obeikandl.com